

## صفات عباد الرحمن

### ٦ - التوحيد

#### ● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن ومع عباد الرحمن، ومن منا لا يجب أن يكون عبداً من عباد الرحمن؟ من منا لا يجب أن ينتمي إلى هذه الفئة الصالحة الصادقة، التي رضيت عن الله تعالى ورضي الله عنها، وجعل جزاءها الجنة ﴿يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيَلْفُوتُ فِيهَا سَبْعَةٌ سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] ، وستجل ذكرها في كتابه، وذكرهم بهذه الأوصاف الكريمة، وهذه السمات الجليلة، وهذه الأخلاق الجميلة؟.

فبين الله تعالى من أول الأمر حالهم في أنفسهم، حال التواضع والسكينة: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وحالهم مع الناس وبخاصة أولئك السفهاء والجاهلون: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وحالهم مع ربهم: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [١٤] ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [١٥] ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٦] [الفرقان: ٦٤ - ٦٦] ، ثم ذكر حالهم في أموالهم، فهم فيها متوسطون معتدلون، شأنهم شأنهم في كل أمورهم وفي كل حياتهم، منهجهم الوسط، وطريقهم الاعتدال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [١٧] [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . .﴾ [البقرة: ١٤٣] .

هكذا ذكرهم الله تعالى بتلك الصفات الإيجابية، ولكن الدين أمر ونهي،

فإذا كان هذا حالهم مع أوامر الله تعالى وتوجيهات الدين، فما هي حالهم مع ما نهى الله تعالى عنه؟

هذا ما ذكرته هذه الآية الكريمة التي نقف عند الفقرة الأولى منها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. إن سيرتهم غير سيرة المشركين، المشركون يعبدون مع الله آلهة شتى، اتخذوها أرباباً من دون الله أو مع الله، والمشركون لا يتوزعون عن سفك الدماء وقتل الأنفس، والمشركون لا يتوزعون عن هتك الأعراض وسفح الشهوات، ولكن عباد الرحمن توزعوا عن هذا كله.

فأول ما اتصفوا به هو التوحيد، ولهذا «لا يدعون مع الله إلهاً آخر»: لا يتجهون إلى غير الله بالدعاء، و«الدعاء من العبادة»<sup>(١)</sup> بل الدعاء هو العبادة.

روى الترمذي أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»<sup>(٢)</sup> وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فوضع كلمة (الدعاء) موضع كلمة (العبادة) وكلمة (العبادة) موضع كلمة (الدعاء).

فـ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا يعبدون إلا الله، ولا يقدسون غير الله، ولا يتهلون إلى غير الله، ولا يسجدون لغير الله، ولا ينحنون لغير الله، إلههم (الله) وحده.

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك، ثم قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة (صحيح الترمذي، أبواب الدعوات: باب ما جاء في فضل الدعاء).

(٢) ورواه مسلم والطبراني وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن النعمان بن بشير، وقال الترمذي: حسن صحيح (كشف الخفاء للعجلوني: ٤٠٣/١ برقم ١٢٩٥).

قد أفردوا الله وحده بالعبادة وبالاستعانة، فهموا سرّ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك: «... إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله..»<sup>(١)</sup>، وكما قال الله تعالى على لسان شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

إن تفرد الله بالعبادة والإنابة، وبالنوكل والاستعانة: هذه هي حقيقة التوحيد.

والتوحيد نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

توحيد الربوبية: أن تعتقد أنه لا رب غير الله، ولا خالق ولا رازق غير الله، فهو خالق السموات والأرض ومالكهما.

وهذا النوع من التوحيد قد اعترف به المشركون، كانت قريش ومشركو العرب يعترفون بأن الله رب السموات والأرض: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاسْحَرَ الشَّمْسَ﴾، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ومع هذا الاعتراف أشركوا مع الله آلهة أخرى، عبدوا الأحجار وعبدوا الأوثان والأصنام، ومن الناس من عبد الشمس ومن عبد القمر، ومنهم ومنهم.

ومن هنا قالوا: إن توحيد الربوبية لا يغني عن التوحيد الآخر: توحيد الألوهية.

توحيد الألوهية: أن لا تؤله غير الله، ولا تتجه بالدعاء والعبادة

(١) قطعة من حديث ابن عباس، الذي رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وسيأتي نصّه كاملاً في صفحة (٩٢).

والاستغاثة والرجاء والخوف إلا إلى الله وحده .

وهذا هو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، ليدعوا إليه أقوامهم، فإن الذي أضل البشرية ليس هو الجحود والإلحاد، بل هو الشرك والوثنية .

ولهذا كان النداء الأول في رسالات الرسل: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، وكان التوحيد هو القاسم المشترك بين رسل الله جميعاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥] ﴿الأنبياء: ٢٥﴾ ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

كان المشركون يعتقدون أن الله خالق كل شيء ويعبدون غيره، ويقولون عن آلهتهم المزعومة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَعَبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ، فجاء الإسلام ليحرر هؤلاء من عبادة غير الله، سواء كان هذا الغير حجراً أو بشراً، أو جنّاً أو ملكاً، أو حيواناً أو نجماً، أو شمساً أو قمراً، أو جاداً أو أي شيء .

كان النبي ﷺ يختم رسائل إلى ملوك الأرض - إلى قيصر . . إلى أمراء النصارى . . إلى المقوقس . . إلى النجاشي . . إلى غير هؤلاء من أهل الكتاب - بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

إن الذي أفسد الحياة، وأفسد المجتمعات، هو: دخول الشرك عليها، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فإنهم لم يعبدوا الحجر فقط بل عبدوا البشر .

كان هناك مثل (التمروذ) الذي قال: أنا أحيي وأميت<sup>(١)</sup>، فقد حكم على رجل بالإعدام ثم أعدمه، وحكم على آخر بالإعدام ثم عفا عنه، أنذا أحيي وأميت!

و(فرعون) الذي ادعى الألوهية، وقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي﴾ [النازعات: ٢٤]. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفصص: ٣٨] ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهناك كثيرون ادعوا لأنفسهم أو ادّعى لهم أنهم آلهة أو أرباب من دون الله، وقد لا يدعون ذلك بالفاظهم ولكن أعمالهم تنبئ عنهم، وتصرفاتهم تعبر عن هذا التأليه الكامل، فهم يريدون أن يذلوا عباد الله، وأن يصبح الناس لهم عبيداً، يأمرونهم فيطيعون، ويشيرون إليهم فيسمعون، ويشرعون لهم فينفذون، ويحلّون لهم الحرام أو يحرمون عليهم الحلال فيستجيبون!

لا يقولون: لم، ولا يقولون: لا، يحزمون عليهم ما شاؤوا ويحلّون لهم ما شاؤوا!

دخل عدي بن حاتم - وكان قد تنصر في الجاهلية - على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورٌ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال إنهم لم يعبدوهم، قال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبوههم فذلك عبادتهم إياهم»<sup>(٢)</sup>.

هذا نوع من العبادة: أن تتخذ أناساً مشرعين، يشرعون لك ما شاؤوا،

(١) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ حَاجًّا يُرْوَعُونَ فِي رَيْبِهِ أَنْ مَاتَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ يُرْوَعُونَ رَبِّيَ الَّذِي يُعَذِّبُ النَّاسَ الَّذِي أَنَا أُخِي. وَأُيْتُوا﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة التوبة، من رواية الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير، من طرق، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه (٢/٣٤٨ - ٣٤٩)، طبعة الحلبي.

يحلّون ويحرّمون، اغتصبوا سلطة الإلهية!

هناك أنواع شتى من الربوبية تظاهر بها الناس في مختلف القرون وعلى مر العصور، ودان الناس لهم وأطاعوهم، فانقسموا قسمين: آلهة وعبيد، آلهة يفعلون ما يشاؤون، ويحكمون بما يريدون، ولا يُسألون عمّا يفعلون، وعبيد ليس لهم إلا السمع والطاعة.

جاء الإسلام يحزّر الناس من هذا كلّه، يحزّر النفوس من الشرك، يحزّرها بالتوحيد، يحزّرها بـ (لا إله إلا الله) هذه الكلمة كانت إيذاناً بحياة جديدة، ومجتمع جديد، كانت إعلاناً لحرية البشر ولحقوق الإنسان.

هذه الكلمات يجب أن ترتفع الحياة، وأن تتحرز النفوس، وأن ترتفع الرؤوس، ولا تنحني إلا لله في ركوع أو سجود.

كان التوحيد تحريراً حقيقياً للبشرية.

ولم يسمح النبي ﷺ بأي نوع من أنواع الشرك، سواء كان أكبر أو أصغر.

هناك الشرك الأكبر وهو نوعان: ظاهر جلّي كاتخاذ آلهة مع الله، وباطن خفي كدعاء الموتى والمقبورين والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم.

وهناك الشرك الأصغر: كالتبرك بالشجر أو بالحجر، وكالحلف بغير الله تعالى، كأن تقسم بالنبي ﷺ أو بالكعبة أو بالشيخ الفلاني أو بالولي الفلاني، وقد قال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك»<sup>(١)</sup>، لا تحلف إلا بالله: «... من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٧٧١ / ٢ - ٧٧٢ برقم ١٧٩٢).

(٢) رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأوله: «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم...».

ومن الشرك الأصغر أن تقول: لولا فلان لحصل كذا وكذا، فالمسلم ينبغي أن يتحرز في ألفاظه ويقول: لولا الله ثم فلان لكان كذا وكذا.

قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني الله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده»<sup>(١)</sup>. وفي حديث آخر: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم ما شاء فلان»<sup>(٢)</sup>.

لا ينبغي أن يُقال: باسم الله واسم فلان، لأن ظاهرة هذه الألفاظ جعل (فلان) هذا كأنه شريك مع الله، كأنه نداء لله تبارك وتعالى.

أراد النبي ﷺ أن يحزر الإنسان المسلم فلا يتجه إلا إلى الله وحده.

حتى الغلو في شخصه ﷺ نهى الناس عنه، ما كان يجب أن يغلو الناس فيه، وقال: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(٣)</sup>. ومن هنا نقول في التشهد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ولهذا وصفه الله بالعبودية في أسمى المقامات: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

(١) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده صحيح، ورواه أيضاً النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨) بلفظ «أجعلتني لله عدلاً» انظر (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق عبد القادر الأرنؤوط ص ٥٠٥) (زاد المعاد بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط: ٣٥٣/٢).

(٢) رواه أبو داود، وأحمد، من حديث حذيفة، وإسناده صحيح (زاد المعاد: ٣٥٣/٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، من حديث عمر رضي الله عنه (شرح السنة للبخاري بتحقيق الشاويش والأرنؤوط: ٢٤٦/١٣ برقم ٣٦٨١) والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

وهذا هو ما يفتخر به ﷺ، أنه عبدُ الله.

لم يسمح لأحد أن يخلو فيه، ولما جاء بعض الناس وقالوا له: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»<sup>(١)</sup>.

ومن الشرك الأصغر: النذر لغير الله<sup>(٢)</sup>، والذبح لغير الله<sup>(٣)</sup>، والرقي<sup>(٤)</sup>، والتماائم<sup>(٥)</sup>، والتولة<sup>(٦)</sup>، .....

(١) رواه الثسائي. عن أنس رضي الله بسند جيد (حقيقة التوحيد للقرضاوي) ص ٦٣٠ وانظر (عمل اليوم والليلة بتحقيق فاروق حمادة، الأحاديث: ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه» رواه البخاري وغيره.

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَكُنْتُ أُصَلِّي وَأُحْيِي وَأُحْيَىٰ وَمَا كُنْتُ مِنَ الْمُتَلَبِّينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. والنسك: الذبح بقصد التقرب، وفي الحديث عن علي رضي الله عنه: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات - وذكر أولها - : «لعن الله من ذبح لغير الله» رواه مسلم.

(٤) التي تسمى (العزائم) وهي عبارة عن كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات، مستعينين بالجن أو مرددين بعض الألفاظ الأعجمية أو غير المفهومة، فجاء الإسلام فأبطل ذلك، إلا ما ذكر فيه أسماء الله وصفاته وآياته والمأثور عن النبي ﷺ فهذا حسن.

(٥) جمع ثميمة، وهي خرزات كان العرب يعلقونها وخاصّة على الأولاد زاعمين أنها تدفع عنهم الجن أو تقيهم من العين ونحوها، فأبطلها الإسلام، ومن هذه التماائم ما يسمى (الجامعة) أو (الحرز) أو (الحجاب) أو ما شابه ذلك، فكل ذلك من كبائر المنكرات، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وانظر: كتاب الشيخ القرضاوي: «موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن الكهانة والتماائم والرقي» نشرته مكتبة وهبة.

(٦) شيء يصنعونه يزعمون أنه يجلب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، وهي ضرب من

وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

كلّ هذه ضروب من الشرك لا ينبغي للمسلم أن يقع فيها، وقد حذّرنا النبي ﷺ منها.

جاء الإسلام يدعو إلى التوحيد، وإلى التحرّر من الشرك أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، وذلك ليكون الشخصية المتزنة.. الشخصية السوية.. الشخصية التي لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا الله.

المشرك يخاف من كل شيء ويخاف على كل شيء، والمؤمن الذي وُحِدَ اللهُ تعالى لا يخاف من شيء، سدّ منافذ الخوف كلّها، فلم يعد يخاف إلا ربّه، حتى الموت لا يخاف منه، لأنّه يعلم أنّ بعد الموت حياة أخرى يلقي فيها ربّه، ويخلّد فيها في عمله، ولا يخاف على الرزق ولا يخاف على الأجل، لأن الرزق مضمون والأجل محدود: ﴿جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومن هنا كان التوحيد مصدر الأمان النفسي: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: لهم الأمان في الدنيا والاهتداء، ولهم في الآخرة كذلك.

على حين قال الله تعالى عن المشركين: ﴿سُئِلَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَنَازِلَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

التوحيد تحرير للنفس، فلا تدلّ لغير الله، ولا تعتر إلا بالله وحده. ﴿وَلِلَّهِ

---

= السحر، وفي حديث ابن مسعود: «إن الرقى والتمايم والثولة شرك» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق الأرنؤوط) ص ١٣٣.

(١) هناك ألوان أخرى من الشرك الأصغر ذكرها الأستاذ القرصاوي في رسالته الوجيزة النافعة: «حقيقة التوحيد» التي نشرتها مكتبة وهبة بالقاهرة.

الْعِزَّةَ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿[المنافقون: ٨] ، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾  
[فاطر: ١٠] .

التوحيد سمو بالإنسان، وارتفاع به عن حضيض الأرض إلى الأفق الأعلى، أما الشرك فهو انحطاط بالإنسان، ينحط الإنسان ليعبد إنساناً مثله، أو ليعبد أشياء سُخِرَت من أجله، يعبد أشياء لا تضر ولا تنفع، يعبد أشياء لا تُبصر ولا تسمع، يعبد أشياء لا تعي ولا تعقل.

انظروا إلى ذلك الذي ينحت الحجر بيده ثم يتوجه إليه راجياً خائفاً خاشعاً متضرعاً! كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦] .

انظروا إلى ذلك الذي يعبد الحيوان الذي سُخِر لمنفعته، ويقَدَس الأنعام التي تخدمه وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة!

كنت في الأسبوع الماضي في الهند، فرأيتهم كيف يقَدسون الأبقار التي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها - ضرراً أو نفعاً أو موتاً أو حياة.

والعجيب أنهم يُؤلّهون البقرة ولا يُؤلّهون الجاموسة، والجاموسة أنفع منها، وأكثر لبناً، ويُؤلّهون الأنثى ولا يُؤلّهون الذكر، الأنثى تُقَدَس وتُعبَد، والشور يُضرب ويهان ويُستخدم في حمل الأثقال وغير ذلك.

ما الذي جعل هذه إلهاً وذلك ليس بإله؟! وما الذي جعل البقرة إلهاً والجاموسة ليست بإله؟! شيء عجيب!!

هناك وجدنا من يعبد الشعابين، ومن يعبد النمل، ومن يعبد الشيطان، وهناك من يعبد الفرج، ومن يعبد الحشرات!!

الشرك أذل الإنسان وانحط به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ السَّمَاءُ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَاجِدٍ﴾ [الحج: ٣١] .

والشرك وكرّاً للخرافات ومبائة للأضاليل، يجعل الإنسان أسير الأوهام، ويصبح زمامه بيد أولئك الكهّان الذين يبيعون فيه ويشترون، ويسوقونه أو يقودونه كما تُساق أو تُقاد الأنعام.

أولئك الكهنة وسدنة الأصنام وخدمتها، يتحكّمون في أولئك الناس، إذا قالوا لهم شيئاً سمعوا وأطاعوا، وهذا هو الشرك، وهذه هي العبوديّة، عبوديّة الإنسان للإنسان!

جاء الإسلام ليحرّر الإنسان من هذا الوهم، ويجعله مع الله مباشرة، ليست هناك وساطة بين الله وعباده، ليس هناك سمسرة محتكرون لهذه الوساطة، تستطيع أن تفرع باب ربك في أي وقت وتدعوه بما تشاء، فيقول لك: لبيك وسعديك، تستطيع أن تصلي في أي بقعة من الأرض:

«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»<sup>(١)</sup>، تستطيع أن تؤدّي عبادتك وأنت متحرراً من رق الكهنوت.

جاء الإسلام ليحررنا من العبوديّة لغير الله تبارك وتعالى، وهذه مزية عباد الرحمن، أنتم: «لا يدعون مع الله إلهاً آخر» أيّاً كان هذا الإله، تحرّروا من كل الوثنيات: الوثنيّة الدينيّة، والوثنيّة الاقتصاديّة، والوثنيّة الاجتماعيّة.

أ - الوثنيّة الدينيّة: اتخذ آلهة أخرى، سواء كانت وثنيّة كبرى أو وثنيّة صغرى، وثنيّة ملحوظة أو وثنيّة غير ملحوظة.

---

(١) قطعة من حديث جابر المتفق عليه، ورواه أيضاً النسائي، ونصّه: «أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصل، وأخلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة وُبعثت إلى الناس عامّة»: (الجامع الصغير للسيوطي: ٤٦/١ - ٤٧) وشرحه: (فيض القدير للمناوي: ٥٦٦/١ - ٥٦٨ رقم ١١٧٤).

قد يقول بعض الناس: نحن لا نعبد هؤلاء، ولكن إذا كانت تتوجه إلى صاحب الضريح وتستغيثه وتبتهل إليه، وتحاف منه أكثر مما تحاف الله<sup>(١)</sup>، فهذا من الوثنية.

لا يجوز للمسلم أن يستغيث بولي أو صاحب ضريح، إنما عليه - إن كان مسلماً - إذا زار قبراً من هذه القبور أن يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»<sup>(٢)</sup>، فهو يدعو لهم وليس يدعوهم، هذا منطلق الإسلام.

أما أن تدعوهم وأنت لا تعرف إن كانوا من أهل الجنة أم من أهل النار، لأنك لا تدري شيئاً عن خواتيم العباد، لا يستطيع إنسان أن يجزم أن صاحب هذا القبر قد ختم له بالإيمان، وهو في الجنة.

ولما مات عثمان بن مظعون - وهو من السابقين الأولين الذين دخلوا في الإسلام وأوذوا في سبيله وهاجروا من أجله - قالت أم العلاء الأنصارية: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: «مَنْ هذه المتألمة على الله تعالى؟ وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي؟» قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً<sup>(٣)</sup>.

فلم يرض النبي ﷺ أن تقول الصحابة: (فشهادتي عليك: لقد

- 
- (١) بعض الناس يُقسم بالله كاذباً ويخشى أن يقسم بالشيخ أو بالولي!!
- (٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم في كتاب (الجنائز) باب (ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها). انظر: (صحيح مسلم بشرح النووي ٤٥/٧) ط. دار الفكر.
- (٣) رواه البخاري في صحيحه عن أم العلاء الأنصارية في عدة مواضع: في الجنائز والشهادات، وفضائل الصحابة والتعبير، وهو مع قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بَدْعاً مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَدَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ...﴾ (٩)، وهذا قبل أن تنزل سورة الفتح وفيها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ (٢) فالأحقاف مكية، والفتح مدنية باتفاق.

أكرمك الله) بهذا الجزم، لأنها صيغة قسم، ومن أين تعلم أن هذا قد حُتم له بالجنة؟ العشرة المبشّرون بالجنة - وأمثالهم - هم الذين نشهد لهم بالجنة، وما عدا ذلك فكلّ إنسان مصيره إلى الله.

ثم لماذا تطلب من غيرك وهو مثلك عبد ومخلوق؟! هل يسأل (الشحات) (الشحات)؟!

اسأل صاحب الخلق والأمر، اسأل صاحب الخزائن التي لا تنفذ: «.. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله..»<sup>(١)</sup>.

ب - الوثنية الاقتصادية: عبادة المال، عبادة الدينار والدرهم، كما جاء في حديث البخاري: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة»<sup>(٢)</sup> وزاد في رواية: «وعبد القطيفة»<sup>(٣)</sup>.

هناك أناسٌ أشركوا مع الله المال، فهم يلهثون وراءه، يستحلون من أجله

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ونصّه كاملاً: قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وخفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية.

(٢) بفتح الخاء: ثوب مُعَلَّم من خَزٍّ أو صوف.

(٣) هي كساء له خمل يجعل دثاراً، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وتمته: «إن أعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماء، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع». وانظر تعليق الشيخ القرظاوي على الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣٦٨ - ٣٦٩ برقم ٦٥٨).

كل حرام، ويرتكبون كل موبقة، هؤلاء عبيد المال.

ج - الوثنية الاجتماعية (أو الوثنية السياسية): إذا كان هناك من يعبدون القبور، فهناك من يعبدون القصور، شرك العوام تأليه الأموات، وشرك الخواص تأليه الأحياء! طاعتهم طاعة مطلقة، إعطاؤهم حقوق الألوهية من التعظيم والتقديس والخوف والرجاء.

وكل ذلك وثنية.

إذا كنت عبداً لله حقاً فلا تؤله غير الله، ولا تلتفت بقلبك إلا إلى الله، لا يملك أحد لك ضرراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا موتاً، ولا يستطيع مخلوق أن يقدم لك أجلاً، أو ينقص لك رزقاً: «... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»<sup>(١)</sup>.

التوحيد الحقيقي يجعل من المسلم شخصية قوية، تقف عند الحق، وتتشبث به، وتجادل دونه، وتدافع عنه، وتبذل من أجله المال والنفس والنفيس، والغالي والرخيص، وهذا هو الذي تقوم به النهضات، وتنتصر به الرسالات، ويرتفع به شأن الأمم.

المؤمنون الموحدون الأقوياء هم الذين أخلصت قلوبهم لله، وتحررت له، فلم يعد هناك أرباب أخرى، كما قال يوسف عليه السلام لأصحابه في السجن: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَيْرَ اللَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] أتعبد عدداً من الآلهة أم إلهاً واحداً قهاراً؟!!

الذين يعبدون الآلهة المختلفة تتوزع قلوبهم رغبات مختلفة، وأهواء مختلفة،

(١) جزء من حديث ابن عباس السابق: «يا غلام إنّي أعلمك كلمات...».

لا يدري أيهم يُرضي وأيهم يُسخط، كما ضرب القرآن لنا مثلاً: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا رَجُلًا هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] .

إنه مثل واضح: عبد له سيد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه فلزم رضاه ففاز بقربه ومحبه وعبد له أسياد مختلفون وهم شركاء متشاكسون، هذا يأمره أن... يذهب إلى الشرق وهذا إلى الغرب، فلا يدري من يُرضي ومن يُسخط، ومن يطيع ومن يعصي.

هذا فرق ما بين الموحد والمشرک، ما بين المؤمن وغير المؤمن، ما بين عبد الرحمن وعبد غير الرحمن.

عباد الرحمن حزرُوا أنفسهم من كل آلهة سوى الله، فلا يدعون مع الله إلهاً آخر، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، وهكذا ينبغي أن تكون نساء الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أخلصهم الله لدينه، وأخلصوا دينهم لله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

## ● الخطبة الثانية:

أما بعد:

ورد في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا.

اللهم أكرمنا ولا تهنأ، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[البقرة: ٢٠١] .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا  
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا،  
واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام أيًا كانوا، اللهم رد عن المسلمين  
كيدهم، وفلّ حذهم، وأذهب عن أرض المسلمين سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً  
على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا  
عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

واقم الصلاة .